

## الفصل الثالث

### جَوَانِبُ الْفَرَزْدَقِ

#### ١ - الفرزدق السياسي

كان الشعر صنعة تدرُّ الرزق ، والشاعر صحيفة الحزب السيّارة ، والمديح نوعاً من الدعاوة الإيجابية لترويج مبادئ الحزب ، والهجاء نوعاً من الدعاوية السلبية لتهديم الحزب المعارض . وكان الناس يهتمون لأحاديث الشعراء ، ويتشادون قصائدهم في مجادهم ، ويتعصب كل فريق لشاعره . أما الفرزدق - وهو من أكبر صحف ذلك الزمان ، إذا صح لي هذا التعبير - فلم يستطع أن يكون مع الحزب الحاكم باستمرار ، يؤيده وينشر مبادئه ويدعو له كما فعل الأخطل ، لأن قبيلته لم تكن قريبة من الحزب الحاكم ، ولا هو استطاع أن يعاديه باستمرار ؛ لسطوة الحاكمين وعسفهم بأعدائهم ، ثم لحاجته إلى عطائهم . أفكان الفرزدق في صميم نفسه علويّاً أم زبيرياً أم خارجياً أم مرجئاً أم ماذا ؟ !

الحق أنه يصعب تحقيق هذه العقدة ، وحلها ليس من السهولة بحيث نستبين به ، ولكننا نحاول .

( أ ) أما الخوارج ؟ فلم يتعرض لهم ، ولكنه مدح من حاربهم كالحجاج والمهلب ، وما تطاوله على الحجاج بعد ذلك وتعرضه لهجائه بعد موته إلا إرضاء لسليمان بن عبد الملك . ولعل إيمان الخوارج العميق لم يستطع أن يخالط قلبه الجاسي<sup>(١)</sup> أو يؤثر فيه ، وهو الذي قبل ظاهر الإسلام وفعل ما يخالفه وتفلسف بعفو الله فلسفة عليها الطابع الهكّمي والتعريض اللاسع .

( ب ) وأما الزبيرية : فقد سبها علناً ، وكان ذلك بعد القضاء على الحزب الزبيرى ، وفي قصيدته التي يمدح بها الحكم الثقي ابن عم الحجاج وصهره وعامله

(١) الجاسي : الصلب القاسي .

على البصرة . والحجاج - كما نعلم - عدو الزبيرية الأول ، والمحمد أنفاسها ،  
وصالب زعيمها عبد الله ، وهادم الكعبة بيت الله إذ كانت موثله ومعتصمه .  
فشتّم الفرزدق الزبيرية بعد القضاء عليها ليس إلا باباً من أبواب مجاملة الحزب  
الغالب يقول :

فالأرض لله ولاّها خليفته وصاحب الله فيها غير مغلوب  
بعد الفساد الذي قد كان قام به كذّاب مكة من مكر وتخریب  
ونحن نعلم أن عبد الله بن الزبير لم يكن كذاباً - وإن كان بخيلاً على  
الشعراء - وليس هو الذي خرب الكعبة ، بل الذي هدمها بالمنجنيق هو :  
الحجاج عامل بني أمية . فما معنى هذا التحامل إذن ؟ وما معنى وصم ابن الزبير  
بالكذب ؟ ! إنا مهما تحرّينا فلن نجد لذلك سبباً إلا إرضاء آل الحجاج وبني  
أمية من باب الكذب على الأموات !!

( ج ) وأما الشيعة : فالشريف الرضي - وهو زعيم العلوية في زمنه - يحاول  
أن يزجّ الفرزدق في جملة شعرائهم والمنافحين عنهم . ويذكر الرواة عن طريق  
العلوية ، قصة وقوفه أمام هشام بن عبد الملك وإنشاده القصيدة الميمية المشهورة في  
مدح زين العابدين والتي يقول فيها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم  
وهذه القصيدة مختلف في صاحبها وفي من قيلت فيه !! ولو فرضنا أنها  
صحيحة وأنها قيلت حقاً في زين العابدين لما كانت دليلاً على علويته ، لأننا لا  
نجد في ديوانه - على ضخامته - قصيدة علوية سواها ، في حين نجد أكثر من  
خسين قصيدة في الأمويين وعمالمهم وولاتهم ، فكيف نوفق إذأ بين هذا وبين  
رأى الشريف الرضي ؟

ولا بأس من الاستطراد قليلاً فنذكر سبب إنشاد هذه القصيدة ، يقال :  
إن هشاماً كان على شرف عال يشاهد الزحام حول الكعبة وتهافت الناس على  
تقبيل الحجر الأسود ، وقد حاول هو نفسه أن يصل إليه فلم يستطع ، وبينما  
هو كذلك إذ انفرحت الناس فجأة وانثقت لعلي بن الحسين ، زين العابدين ،

بينهم فرجة كالطريق حتى قبل الحجر وعاد . فسأل واحد من أهل الشام هشاماً عنه فقال : « لا أعرفه » استصغاراً لأمره ولكي لا يلفت أنظار من حوله إليه . وكان الفرزدق حاضراً يسمع ، فأخذته الحمية فقال : « أنا أعرفه » ! ! ثم وقف ينشد هذه القصيدة مرتجلاً . ونحن لا نستبعد الارتجال على الفرزدق خصوصاً أن ليها دليل عليه . ولكن بعض الرواة يتفيا عنه ألبتة ويرويا لداود ابن سالم في ختم بن العباس . وبعضهم يرويا للحزين في عبد الله بن عبد الملك وهو عند عبد العزيز بن مروان في مصر . وغيرهم يرويا لخالد بن يزيد مولى ختم فيه . ويؤكد صاحب الأغاني أن الأبيات : في كفته خيزران . . . ويغضى حياء . . . للحزين ؛ والبيت : يكاد يمسه . . لداود بن سالم في ختم بن العباس . وكيفما كان الأمر فالشك في نسبة هذه القصيدة إلى الفرزدق شك واضح وهي بالتالي ، لا تدل على علويته مطلقاً .

( د ) وأما الحزب الأموي : فإننا نجد له فيه خمس ديوانه تقريباً ، وكثيراً من المطولات في مدح عبد الملك والوليد وهشام . ولكننا لا نلمس في مديحه عاطفة ولا حباً ولا إعجاباً . فن أي الأحزاب هو إذن ؟ وإلى أيها هو أميل ؟ ! الذي صح عندي أنه لم يكن منتمياً إلى حزب معين ، بل كان يتجه مع المعارضة حيث اتجهت ، ولكن لا يقودها ولا ينفخ في نارها ولا يتولاها بعناية خاصة ، وما مدائحها في بني أمية إلا نوع من الملق السياسي ومزيج مضطرب من الحاجة والطمع والطموح معاً . ولكن هذا الملق لم يشفع له عند زياد بن أبيه ، فاضطر إلى أن يفرّ من وجهه في البلاد ويشنع عليه بأهاجيه الساعة ، زادت القصاصد الكاملة فيه ، على العشر ، وطفق يعرض به في كل مناسبة ويسبه أشنع سب . فإذا هجا جريراً تذكر زياداً بشيعة ، وإذا رثى مسكين الدارمي زياداً هاجمه الفرزدق فهجاه وهجا زياداً معه . وإذا ذكره بعد موته قال إنه جيفة :

أبلغ زياداً إذا لاقيت جيفته أن الحمامة قد طارت عن الحرم

ومجد لله شكراً حين بلغه موته ، فقد كان أشدّ العمال عليه حتى قطعه خروفاً وبقي طريداً عن البصرة إلى أن مات زياد فعاد إليها وقلبه مفعم بالشماتة . وزياد

— كما نعلم — عامل بنى أمية الممتاز وموطد ملكهم قبل الحجاج الذي يعد تلميذه . وعلى هذا فلم يكن الفرزدق أمويًا ولا متميًّا إلى حزب معين ، ولكنه مع الضعيف المظلوم حتى يقوى وعلى الظالم حتى يطامنه ، فالعلويون ظلموا ظلمًا فاحشاً وأوذوا كثيراً وعذبوا حتى رقت لهم قلوب الناس وعطفت عليهم شفقة ورحمة . فقصيدة الفرزدق في ابن الحسين — وإن صدقت — لم تكن إلا وليدة عاطفة موقنة عارمة ، عصفت في نفسه لحظة أنشدها فيها بحماسة استغل بها العلويون اسم الشاعر أيما استغلال ، ثم لم تلبث هذه الثورة أن تلاشت بين ذهب الأمويين وبطشهم ، فعاد يضرب على وترهم وينشد أغانيهم . وكان الأمويون يستندون في حق تملكهم إلى مقتل عثمان . وكلما خمدت هذه الفكرة في أذهان الناس أثاروها ببراعة وحذق ، وعرف الشعراء ذلك منهم فرددوها لهم ، لأنها النعمة المستحبة لديهم ، ولم يشد الفرزدق على هذه القاعدة ، فأكثر من ذكر عثمان وأيد حق الأمويين به .

ونحن نعلم أن هذه الفكرة لا يقبلها العلويون بل يحاربونها بشدة . ومع هذا فقد ردها الفرزدق في أكثر من عشرين قصيدة . فهل يعقل بعد هذا أن يكون علويًا محضاً؟! ولعل الرأي الذي قدمناه فيه هو أقرب الآراء إلى الصواب إن لم يكنه ! فالفرزدق شاعر معارض . ولكنه لا يتقيد برأى حزب معين ، بل ينصر الضعيف أيًّا كان . ويحارب الظالم ويتناول عليه ويغمز من جانبه مهما يكن شأنه وحوله وطوله ، يؤيد ذلك بعض ما ورد عنه أنه كان يهجو ابن هبيرة إذ كان والياً على العراق :

تفهق بالعراق أبو المثنى وعلم أهله أكل الخبيص  
فلما عزل وسجنه خالد القسرى ؛ مدحه وهو في السجن ، وهجاها لداً هجاء مرّاً :  
فقد حبس القسرى في سجن واسط في شيطاناً ما ينهه الزجر  
وكذلك رده الجائزة التي قدمها له زين العابدين لما بلغه مديحه إياه أيام هشام بالقصيدة الميمية . ردّ الجائزة وقدرها أربعة آلاف درهم وأرسل إليه يقول : إنما مدحتك بما أنت أهله لا طمعاً بجذواك « هذا إذا صدق الراوي وكانت القصيدة فيه .  
على أنه كان يمالى القوة أحياناً خوفاً من السجن الذي تردد عليه مراراً وخرج

منه ليعود إليه أحياناً . ويتملق لها بشكل أقل ما يوصف به أنه ملق سياسي مفضوح . وذلك بهجو المعارضين وإن كان له فيهم أماديح سابقة ، فقد مدح الحجاج في حياته ورثاه بعد موته ، ولما اعتلى سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة — وكان يكره الحجاج ، فشتت شمل آل بيته ، وعزل عماله ونكل بهم — ظهره الفرزدق في هذه النزعة الانتقامية وهجا الحجاج وتحامل عليه . ولما ليم في ذلك اعتل بعذر واه جداً فقال : « نكون مع الرجل ما كان الله معه ، فإذا تخلى عنه تخلينا نحن عنه أيضاً » !! وهذه القصة تدلنا — كما رأيت — على لون راسخ من ألوان السياسة زمن بني أمية . وكان الأمويون أنفسهم يخافونه ويخشون لسانه كما تخاف الحكومة الصحف المعارضة في زماننا فتسرضيها إن أمكن لإرضائها ليسلس لها قيادها . والتاريخ يحدثنا أن مروان بن الحكم لما كان عاملاً على المدينة وبلغه أن الفرزدق يشرب الخمر ويدخل على القيان وينشد الشعر ، طرده من المدينة بتحريض من أهلها ولكنه لم يجرؤ أن يحده الحد الشرعي كما طلبوا منه بل قال لهم : « أكتب إلى عاملي أن يحده ويحبسه » . ثم راجع مروان نفسه وأشفق من لسانه فبعث وراءه بمئة دينار وراحلة إسكناً له وخوفاً من هيجائه .

## ٢ — الفرزدق الشاعر

شعر الفرزدق نموذج كامل للغة الأموية والعقلية الإسلامية صدر دولة بني أمية ، ولهذا لم يخرج موضوع شعره عن الهجاء والمدح والغزل والفخر إلا قليلاً جداً ، تلك المواضيع البدوية التي قال فيها الجاهليون أحقاباً طويلة ، وقال فيها الإسلاميون كذلك ، ولم يزد عليها إلا ألفاظاً إسلامية قليلة ؛ كالإسلام ، والخلافة ، والله ، وإمارة المؤمنين ، وما شابه ذلك مما اقتضاه تغير الظرف الاجتماعي والتطور العقلي طوال قرن كامل . ولقد عرف له القدماء ذلك فقال أبو عمرو بن العلاء : « لم أرَ بدويّاً أقام في الحضر إلاّ فسد لسانه غير رؤبة و الفرزدق » فهو يقرّ معنا بالنفس البدوية التي يحملها الفرزدق بصراحة .

ومن عادة الفرزدق أن يتناول الموضوع الذي يريده رأساً فلا يوطئ له في

الغالب بمقدمة غزلية أو تذكارية للدمن والأطلال والأحبة ، على ما جرت به عادة الشعراء قبله إلا قليلاً ، ولا يطول نَفْسُهُ إلا في النقائض أو المدائح الكبرى . وقد سئل عن ذلك مرةً فقال : « إنها أسير في المحافل » ، فهو يقتصرها عمداً لتنبث في صدور الناس وتنتشر في سمرهم ومجادلهم . وسنعرض فيما يلي للفنون التي تناولها شعره مبتدئين بالهجاء لأنه أول ما عرف به ولاشهره بحرب المهاجاة والملاحاة أو بعين عاماً متواليه من حياته .

### (١) الهجاء :

هجاء الفرزدق عليه طابع خاص لا يشابه فيه شاعر من شعراء اللغة العربية فهو زعيم هذه الطريقة في الهجاء ، ولو كان في هذا النوع مجال للفخر ؛ لكان له وحده من غير شك ، ولكنه فخر منقلب على قفاه يتدنى به ويسفل حتى يدرك الخضيض من البذاءة والوقاحة . يستعمل ألفاظاً غاية في القذارة ويتناول إلى أعراض المهجو فيسب الأم والأب والأخت والزوجة والقبيلة سباً قبيحاً جداً ، ويمزج هذا السب بالفخر فيتعالى بنفسه وشعره وقبيلته إلى السماء ، ويضع نفسه في موضع يتضامل دونه المهجو حتى تحسبه قد انجححر في نفاقاء خلد خجلاً واستحياء ، ويعدّد أيام قبيلته وانتصاراتها وزعماءها وشعراءها ، ويقرن ذلك بمخازي المهجو وانكسارات عشيرته وأيامه السود ، ويمحشوه بالشتائم حشواً . بل يقذفها في وجهه قذفاً قاسياً ويؤله أشدّ ألم حتى يبكيه . ولذلك كانوا يخشون سلاطة لسانه ومعرفة مقوله فيتحاشونه ، ولم يثبت له إلا جرير ، على ما فيه من عفة وأدب بالقياس إليه .

ولم يكن الفرزدق يعف في هجائه عن تناول النساء بالمسبة والإقذاع ، ولعل هذا التطاول منه عليهن جعل تلك المرأة الكلابية التي هجا قومها تعوذ بقبر أبيه لكي لا يذكرها في شعره بسوء فقال :

عجوز تصلى الخمس عاذت بغالب فلا والذي عاذت به لا أضيرها

## (ب) المدح :

كان المديح نوعاً من الدعاية الحزبية ينال عليه الشاعر أجراً يتساوى مع مقداره وقوته وشهرته والحاجة إليه . . . ولقد مدح الفرزدق خلفاء بني أمية وعملهم ونال إعطياتهم وجوائزهم ، مع أن مدحه لم يكن عن إخلاص وحب كمدح جرير أو الأخطل ، ولم يخرج في أسلوبه المدائح عن الجاهلية إلا قليلاً ، يقدم القصيدة بالغزل أو ذكر الديار والدمن . ويذكر ناقته وما قاست من مشاق وما قطعت من فلوات حتى نهكت وحفيت قبل الوصول إليه وأدى خفافها طول السرى والتأويب ، ثم يؤيد حزبهم وفكرتهم كحق إرثهم في الخلافة بعد مقتل عثمان ثم يذكر أهله وكيف فارقهم في جذب وقحط وحاجة ويسترفد العطاء صراحة . وهو فيما بين هذا وذاك يمدحوا المديح فخرًا وتعاضلاً حتى ليختلط عليك المديح بالفخر .

وكان ملحقاً بالسؤال أحياناً لا يستحي أن يطلب من الكرام وهم في السجن . قيل : دخل مرة على سلم بن زياد بن أبيه وهو مسجون وشكا إليه قلة المال في يده وطلب منه فأعطاه . وجاء المدينة مرة في عام جديد فقال الناس لعمر بن عبد العزيز - وكان والياً - أعطه شيئاً لا يلحف على الناس بالطلب فلهم في ضيق ، فأعطاه . ثم رثى بعد ذلك على باب أحد السراة يمدحه طالباً !!

ومدح مرة آل المهمل فقال :

على ذى مناد تعرف العيس منته كما تعرف الأضياف آل المهمل

فلما لم يعطوه شيئاً هجاهم فقال :

ألا قبّح الله القلوص التي سرت برحلى إلى خصيان آل المهمل

بني أمّ عيلان كأن لحاهم نخالى شعر علققت فوق أبغل

وهكذا لم تكن مدائحه تدل على عقيدته قط ، فقد هجا هشاماً ثم مدحه لما

صار خليفة وهجا ابن هبيرة ثم مدحه . هذا إلى كثير غيرهم . فلا أهاجيه تدل

على كرهه الدائم ولا أماديجه تدل على حبه الطويل ، ولكنه كان امرءاً عصبي

المزاج ككل أهل الفن يتأثر بسرعة حباً أو غضباً فيصور نفسه في وقتها ذلك فقط . إلا أهاجيه التي ذهبت مع عمره وردّها طول حياته في جرير فقد كان يكرهه ويغار منه لشاعريته حقاً . وإذا صدقت قصيدته التي مدح بها زين العابدين فإنها تدل على إجلاله العميق له وإيمانه به ، ومهما شك في أمرها أو في بعض أبياتها فإن الباقي له يصور عمق ذلك الإجلال والإيمان إذا ارتجلها بحماسة تظهر جلياً في ترداده بكلمة « هذا » مرات متعددة ، وفيها ما فيها من تعظيم وتوقير .

### ( ح ) الفخر :

نشأ الفرزدق في قبيلة قوية الشكيمة ، أبيّة ، اعتدت في الجاهلية على الحرم ، ولم ترع لدين الناس حرمة ، ولا لما تواضعوا عليه من عبادة ووقار . وكذلك كانت في الإسلام . وورث المجد من طرفيه : من قبل أبيه ومن قبل أمه ، فيجده صعصعة محبي الموءودات ، وفد على النبي فأسلم وقص عليه ما فعل فدحه . وأبوه غالب المشهور بكرمه ، نحر في يوم واحد مئة ناقة ، وكان الفرزدق طفلاً فكان يردُّ عليه النوق ويقول : « يا أبت اعقر » . وأمّه لبني ( أوليلي ) أخت العلاء ابن قرظة الشاعر ، وأم أبيه لبلي بنت حابس أخت الأقرع بن حابس المشهور بالشجاعة والحدود . ولقد ورث الشعر عن جده صعصعة وعن خاله العلاء فلم لا يفخر ولا يشمخ بأنفه على الناس ، في عهد كان المجد الإرثي كل المجد والفخر بالحدود كل الفخر؟! فهو يفتخر بدارم ثم بتميم ثم بمضر . يقول :

فهل ضربة الرومي جاعلة لكم      أبا عن كليب أو أبا مثل دارم

\* \* \*

أتوعدني قيس ودون وعيدها      ثراء تميم والعواصي من الأسود

\* \* \*

إذا مضى الحمراء حولي تعظفت      على وقد دقّ اللجام شكيمي  
أبت أن أسوم الناس إلا ظلامه      وكنت ابن مرغام العدو ظلوم  
ويفتخر بعد هذا بنفسه وبشعره ، ويشير إلى قصائده المشهورة كقوله :  
فكيف تردّ ما بعمان منها      وما يجبال مصر مشهّرات

غلبتك بالمفتى\* والمعنى وبيت المحتبى والخافقات  
 والمفتى\* والمعنى والمحتبى والخافقات إشارات إلى أربع قصائد له مشهورة  
 ذكرت فيها هذه الألفاظ وذهبت في العرب مذهب الاستشهاد ومضرب المثل :  
 وقد يغالى فلا يرى أحداً فوقه أو فوق قومه حتى الخليفة، فإنه لا يعدّه أكثر  
 من كفاء . قيل تلاحى مرة وجريراً عند يزيد بن عبد الملك فقال الفرزدق :  
 « أما بك يا عيار بنى كلب فلا ، ولكن إن شاء صاحب السرير ؛ فلا والله مالى  
 كفاء غيره » .

ولعل هذه العنجهية البدوية قد غرست في نفسه منذ الطفولة ، يدلنا على ذلك  
 قصيدته التي قالها وهو غلام يرعى لأمه غنماً ، إذ أغار الذئب عليه فأخذ كبشاً .  
 ولما رجع إليها لامته على تقصيره ، فوجد للذئب عذراً ووصفه بالحزم ، وقال عن  
 نفسه إن همته فوق الرعى ، فهو يرزق إلى الأمور العظام (١) :  
 ويكثر في فخره من تعداد أسماء أجداده وأجدادهم وآبائهم ، ولا يمل تكرارها  
 في كل قصيدة ، حتى لتحسب الفخر قد طما على كل عاطفة فيه ، ويردها  
 لدى كل مناسبة حتى لتستطيع أن تعد الأسماء حين يبدأ بسردها قبل أن تقرأها .  
 كحابس ودارم ونهشل وغالب . . . إلى آخر القائمة . وهو يفتخر بمصر لأن  
 النبي منها وهى بذلك فى الذروة من الشرف . ويذكر النبي فى كثير من المناسبات  
 ويعظمه ثم يفتخر به :

ومنا رسول الله أرسل بالهدى وبالحق جاءت باليقين نوادره  
 والخلاصة أنه لا يجد منفذاً للفخر إلا طلبه ، ولا درجة للتعظيم إلا ارتقاها  
 حتى بلغت به ذروة الوقاحة . يحكى أنه دخل على بلال بن أبى بردة وأنشده  
 قصيدة يقول فيها :

فإن أبا موسى خليل محمد وكفاه يمينى للهدى وشهاها

فقال له ابن أبى بردة : هلكت والله يا أبا فراس !

فارتاع الفرزدق وقال : كيف ذلك ؟ !

(١) انظر المنتخبات فى الفصل الرابع من هذا الكتاب .

قال : ذهب شعرك ، أين مثل شعرك في سعيد وفي العباس بن الوليد . . .  
وسمى قوماً آخرين .

فقال له الفرزدق على القور : جئني بحسب مثل أحسابهم حتى أقول فيك  
كقول فيهم .

فثار بلال غضباً حتى دعا له بطست فيه ماء بارد غمس يديه فيه ليسكن نائره .  
ودخل على سليمان بن عبد الملك ينشده فافتخر عليه وقال :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب  
سروا يخبطون الليل وهي تلقهم إلى شعب الأكوار من كل جانب  
إذا استوضحوا ناراً يقولون ليها — وقد خصرت أيديهم — نار غالب

فتجهم وجه سليمان . واستنشد نصيباً الشاعر الأسود فدحه فتهلل وجهه وقال  
للحاجب : يا غلام !! أعط نصيباً خمسمائة دينار ، وألحق الفرزدق بنار أبيه !  
وكان الفرزدق بعد هذا يرى العرب خير الخلق ، وأما الموالى والعلوج فليسوا  
في الطبقة الثانية بعد العرب بل في الطبقة الخمسين ، لذلك يجب أن لا يقتصر  
من العربي الصريح إذا قتل مولى من الموالى ، كما يجب أن يعنى المولى من القصاص  
لأنه دون موضع الحصومة يقول :

هم كرهوا القصاص من الموالى وهم قصوا الصريح من الصريح  
فهذه الأستقرابية المتعجرفة هي التي كرهت بنى أمية به ونفرتهم منه وأقصته  
عن مال الحكومة وجاهاها . ولكنه مع ذلك كان يثب إلى الشهرة وثباً ، بل كانت  
الشهرة تزحف إليه خاضعة راضية .

### (د) شعر الغزل :

لم يعرف الحب الصافي إلى قلب الفرزدق سبيله قطعاً ، لأنه لم يكن ينظر  
إلى المرأة نظرة احترام وتقديس ، ولم يكن يراها ترتفع عن درجة قضاء الشهوة  
للرجل وللحمل . فهو لم يكن يكرهها إذن ، ولكن كان يمتنها ويشتهيها شهوة قاتلة  
طوتحت به في كثير من المناسبات وعرضته لمآزق حرجة ، فكان يوصل حباله  
ويتدلى من علو ثمانين قامة ليجتمع بالمرأة :

هما دلتان من ثمانين قامة كما انقض باز أقم الريش كاسره

ويتعرض لمضيفته فيراودها عن نفسها ، فتكون هذه الحادثة سبباً في نفيه عن المدينة . وكان يجد المرأة حراماً أطيّب منها حلالاً . تزوج عدداً من النساء ولكنه لم يكتف بهن بل تعرّض ل жарاته حتى شكته إحداهن للنوار وأنه يلاحقها بوعده ، فقالت لها واعديه وأعلميني ففعلت . وفي الوقت المضروب استقبلته المرأة وقادته إلى حجرة وأطفأت السراج ، ثم سمعها تقول له : يا عدو الله يا فاسق !! فعرف فيها صوت النوار . إذ كانت المرأة قد اختفت وراء حجب بعد أن أطفأت السراج ، وظهرت زوجه النوار مكانها . وعرف أنه خدع فقال لها : « وأنت هي ؟ ! يا سبحان الله ما أطيّبك حراماً وما أردأك حلالاً !! » .

فهو إذا أظهر التألم في غزله فإنما الشهوة التي تقرضه لا الحب . ولم يتخذ الغزل فناً قائماً بذاته كما فعل عمر بن أبي ربيعة : بل كان يتخذه واسطة لافتحاح قصائده في المديح والهجاء وسوى ذلك . بلى هناك قصيدة واحدة فقط أنشأها على طريقة الوصف القصصي ذكر فيها مغامرة من مغامراته الغرامية ، إذ ارتقى بالحبال إلى معشوقته والأبواب دونها مغلقة وعليها الحراس ووصل إليها وزوجها نائم . يصف كل ذلك وصفاً متقناً مطولاً حتى إذا وصل إليها : وصف تمتعه بمجلسها في بيتين فقط ، ثم يفاجأ بصياح الديك فيرتبك ويسألها كيف النزول الآن ؟ فنقول : أما الباب فلا سبيل إلى فتحه لوجود البوابين الموكلين بحراسته ؛ ثم إن مفاتيحه مع زوجها . ويقترح عليها أن تدليه بالحبال التي أصعدته فينزل وهو متكلم على الله !! (١) .

وهذه القطعة تشبه مغامرات ابن أبي ربيعة وامرئ القيس . ونحن لا نشك فيها لعلنا بفسوقه ومغامراته . ولكن أسلوبها جاف غليظ لا يشبه شعر التشبيب والحب في شيء ، إلا أنها من ناحية العرض الفني كقصة شعرية تكاد تكون كاملة . وكان هو نفسه يعرف ذلك من شعره ويقر به لذلك قال : « ما أحوج جريراً إلى صلابتي لعفاهه ، وأحوجني إلى رفته لعهرى !! » .

## (٥) شعر الرثاء :

الفرزدق بدوى العاطفة قاسيها ، يفهم الحياة على أنها طريق : أولها ظلام القوة الأزلية فى الرحم ، وآخرها ظلام الأبدية فى القبر . ولا يرى فى الولادة إلا حادثاً طبيعياً غاية فى البساطة لا يفرح ولا يسر . كما أن الموت حادث عادى لا يبكى ولا يؤلم . لذلك لا ترى له فى الولادة شعراً أبداً . وأما فى الرثاء فليس له عاطفة تشعر بالبعد الأبدى والسفر اللانهائى فى الموت ، ولذلك لا ترى له شعراً رثائياً رقيقاً . وما كان يمارس الرثاء إلا على أنه نوع من فنون الشعر وعليه ألا يقصر فيه . انظر إلى رثائه أولاده وأباه — وهم أقرب الناس إليه — إنك لن تجد فيه عاطفة الأبوة ولا البنوة واضحة ، بل كان ينظر إلى أولاده كما ينظر التاجر إلى تجارته يأمل بها الربح . فهو يربهم ليدفعوا عنه المشاغبين إذا كبر ويقودوا له البعير إذا أسن :

ولكنهم ربحان قلبى ورحمة من الله أعطاهها ملك العواقب  
يقودون بى إن أعمرتنى منية وينهون عنى كل أهوج شاغب  
وينظر إلى زوجته المفقودة نظرة احتقار ، وبدلاً من أن يشيعها بدمعة يلحقها  
بلطمة ازدراء ، ويمتنع عن زيارة قبرها ويراهما أقل من أن يضع وقتها بالوقوف  
على قبرها لحظة يسأل الله لها الرحمة ، لأنها أهون مفقود :

ولست وإن عزت على بزائر تراباً على مرموسة قد تضعضعا  
وأهون مفقود إذا الموت ناله على المرء من أصحابه من تقنعا  
ولما ماتت النوار لم يستطع رثاءها بشيء يناح به عليها ، فبكاها النوائح بشعر  
جرير ، وكان ذلك عليه أشد من القتل لغيرته وحسده . ويروى ابن نباتة الثقفى  
أن الفرزدق أنشده قصيدته التى يرفئ بها ابنه فلما انتهى إلى قوله :

بنى الشامتين الصخر إن كان مسنى رزية شبل مخدر فى الضراغم

قال : يا يحيى أرايت ابنى ؟

— قلت : لا .

— قال والله ما كان يساوى عباءته .

فانظر إلى هذه العاطفة الجالدة وهذه الأبوة التي لا ترى في الولد روحاً وريحاناً ولكنها تنظر إليه كالبضاعة المعروضة في السوق يتفقدتها الشاري ويقومها ويساوم عليها ويقدر أنها لا تساوى أكثر من عبادة .

### ( و ) شعر الوصف :

شعر الوصف قليل جداً في ديوان الفرزدق ، وإنك لا تكاد تقع إلا على أبيات متفرقة في ثنايا قصائده ، ولكنها قوية رائعة كلمسة رسام بارع . أما قصائده الوصفية فمحدودة أشهرها اثنتان : الأولى وصف تسلقه الحبال إلى معشوقته ؛ والثانية وصف الذئب . وقد اشتهرت هذه القصيدة وكثرت المقارنة بينها وبين قصيدة البحترى وقصيدة الشريف الرضى وقصيدة الشاعر الفرنسي ألفريد دوفيني لاشتراكها جميعاً في وصف الذئب . والذي نراه ؛ أنه لا تمكن المقارنة بين هذه القصائد الثلاث مقارنة صحيحة ، فكل شاعر منهم نظر إلى ناحية . فالفرزدق خلق من الذئب شبحاً عاقلاً ودعا إلى طعامه واتخذ ذلك وسيلة للفخر ، ونظم المعنى نفسه في قصيدة أخرى سينية تكاد تشبهها حتى بألفاظها . والبحترى وصف الذئب الجائع وصفاً دقيقاً ثم صور المعركة التي قامت بينهما ثم تغلبه عليه واشتواه شيئاً من لحمه والتبلغ به ، فكانه يرمز بذلك إلى قانون تنازع البقاء وحق القوة وقوة الحق . . . أما ألفريد دوفيني فيصور لنا العظمة الصامته في موت الذئب وسكون أعصابه ومقابلته الموت بنفس أعظم منه وقلب أقوى . فكانه يصور لنا العظمة والإباء والتعالى . هذا وقد أكثر الفرزدق من وصف الشيب وكبر السن ولكن ليس في وصفه صور جديدة تسرعى الاهتمام .

### ( ز ) ملحمة الفرزدق :

نظم الفرزدق قصيدة طويلة بدأها بالغزل كالعادة ، وختمها بهجاء جرير ، وتوسط فيما بين هذا وذاك بالفخر والكرم . أجاد فيها الشكوى ، ووصف الناقة والشتاء الجذب وإطعامه الآكلين . . . حتى كادت صورها تنطق . وتبلغ مائة وواحداً وعشرين بيتاً مماسكة متشابكة كأنها لوحة فنية معروضة في متحف .

ومن قرأها فكأنما قرأ الفرزدق كله وتكشفت أمامه جميع نواحيه الخلقية والأدبية  
وخصائصه الفنية في شعره ، مطلعها :

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف  
ولما كانت طويلة جداً ، بل هي من أطول قصائده تقريباً فإننا نكتفي هنا  
ببيان رؤوس موضوعاتها ونحيل القارئ على النماذج في الجزء الثاني ليقراها بهدوء  
ونأسف أن هذا الكتاب لا يتسع لتحليلها نخبلاً مطولاً .

تقسم القصيدة إلى ستة أقسام :

١ - غزل وتشبيب ( ١ - ٣١ )

٢ - وصف الناقة ( ٣٢ - ٣٣ )

٣ - شكوى ومناجاة ( ٣٤ - ٤٣ )

٤ - وصف الشتاء الخجب وفخره بإطعام الناس ووصف الطعام والآكلين

( ٤٤ - ٥٩ )

٥ - فخره بقومه ( ٦٠ - ١٠٣ )

٦ - هجاء جرير وسب نسائه ( ١٠٤ - ١٢١ )

ويلاحظ في هذه القصيدة أن أطول فصولها هو الفخر . يليه الهجاء ، ثم  
الغزل . وأقله هو الوصف لقلة بضاعته منه .

### ٣ - تأثيره وتأثيره

لم يكن تأثير الفرزدق بالحيط الإسلامي عميقاً مع أنه نشأ في البصرة . والبصرة  
مركز الحركة الثقافية في صدر الدولة الأموية ، بل ظل بدوياً في أخلاقه وحياته  
ولغته وشعره . تحرر جميع ديوانه وراجع كل أخباره فلا تقع إلا على قليل جداً من  
العادات الاجتماعية التي كانت فاشية في عصره .

أما ألفاظ : الدين ، والله ، والنبوة ، والخلافة فكثيرة ، وهو يعير بالكفر  
 ويفتخر بالإسلام ويعتز بالدين . . لكن هل كان ذلك عن اعتقاد عميق وإيمان  
 صريح؟! أفلو كان النبي من غير قريش والحكام من غير مضر أكان افتخر

بالدين وبالنبوة وبالإسلام؟ ! أليس لنا من حياته الداعرة دليلٌ على أن تأثره بالدين لم يكن إلا سطحياً وأن افتخاره به لم يكن إلا من باب الافتخار بالقبيلة على هيئة أوسع؟ ! فقلوه :

قوم أثيبوا على الإحسان إذ ملكوا ومن يد الله يرجى كل تثويب .

\* \* \*

ومنا رسول الله يثار كتابه به دوخت أوثانها ويهودها  
وما بات من قوم يصلون قبلة ولا غيرهم إلا قريش تقودها

\* \* \*

فدراسة الفرزدق تطلعننا في الحقيقة على الناحية السياسية في عصره بوضوح . أما نواحي المجتمع الأخرى فلا سبيل إلى دراستها في شعره بالتفصيل . ولاتألق في ديوانه إلا كلمات البرق الخاطف لا يكاد يتقد حتى ينطفيء .

والفرزدق نسيج وحده في شعره ، له ديباجته الخاصة لا يشاركه فيها شاعر آخر . فلا سبيل إذن لتشبيهه بشاعر ما لتقريب وصفه . على أن لديه صوراً وقصصاً وجدت عند غيره ممن تقدمه حتى بألفاظها ، وله صور وقصص وجدت عند سواه ممن تأخر عنه حتى بألفاظها أيضاً . وسنعرضها فيما يلي متجاوزة لتبين الفروق والمتشابهات منها فعرضها وحده يغنيننا عن الشرح .

امرؤ القيس : الفرزدق :

فعادى عداء بين ثور ونعجة فعاديت منها بين تيس ونعجة

دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل ورويت صدرالمرح قبل عنائها

وقوفاً بها صحبي على مطيهم . . . وقوفاً بها صحبي على كاذني . . .

عمرو بن كلثوم : الفرزدق :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها لنا دون من تحت السماء عليهم

ونبطش حين نبطش قادرينا من الناس طراً شمسها وبدورها

ملأنا البر حتى ضاق عنا أخذنا بأفاق السماء عليهم

وماء البحر تملؤه سفينا لنا برّها من دونهم ومحورها

النايعة :

الفرزدق :

الواهب المثة المعكاء زينها . . .

الواهب المثة المعكاء والغرا . . .

رقاق النعال طيب حجزاتهم . . .

إني من القوم الرقاق نعالهم . . .

فإنك شمس والملوك كواكب

إلى بدر ليل من أمية ضوءه

إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

إذا ما بدا يعشى له كل كوكب

ماقلت من سيء مما أتيت به

فلا رفعت، إن كنت قلت الذي رواء،

إذن فلا رفعت سوطي إلى يدي

على ردائي حين ألبسه يدي

النايعة :

الفرزدق :

فما الفرات إذا هبّ الرياح له

ما النيل يضرب بالعبرين درائه

ترى أوأذيته العبرين بالزبد

ولا الفرات إذا آذيه زحرا

يمدّه كل واد مترع بلج

يعلو أعالي عانات بملتطم

فيه ركام من الينبوت والخضد

يلقى على سورها الزيتون والعشرا

يظل من خوفه الملاح معتصما

ترى الصراري والأمواج تلطمه

بالخيزرانة بعد الأين والنجد..

لو يستطيع إلى برية عبرا

يوماً بأجود منه سيب نافلة... إلخ

إذا علتة ظلال الموج واعتكرت

بواسقات ترى في مائها كدرا

بمستطيع ندى بشر... إلخ

الأعشى :

الفرزدق :

كن كالسموئل إذ طاف الهمام به

وفاء أخى تيماء إذ هو مشرف

في جحفل كهزيع الليل جرّار

يناديه مغلولاً فتى غير جانب

إذ سامه خطي خسف فقال له :

أبوه الذي قال اقتلوه فإنني

قل ماتشاء فإنني سامعٌ حار

سأمنع عرضي أن يسب به أبي

فقال غدر وثكل أنت بينهما

فأدّى إلى آل امرئ القيس بزه

فاختر وما فيهما حظٌ مختار

وأدراعه معروفة لم نغيب

فشك غير طويل ثم قال له  
 اقتل أسيرك إني مانع جارى  
 فاختر أذراعه كى لايسب بها  
 ولم يكن عهده فيها بختار

• • •

وغير هذا كثير كوصف المناقة الذى تجده عند النابغة وتشبيهاها بالور  
 الوحشى إذ بات ليلة صردة ضيفاً على أرطاة يحتمى بها حتى إذا لاحت تباشير  
 الصباح شعر بأنه محاط بصيادين ومعهم كلهم فعادى بينها هنا وهناك ثم شكها  
 بقرنه واحداً بعد الآخر وانفلت كالكوكب الدرى يحلظ تقريباً بإحضار . هذه  
 الصورة تجدها عند الفرزدق وعند الأخطل كذلك .

وبلغ من تأثيره فى بيئته أن أصبحت لبعض أبياته شهرة خاصة تغنى الإشارة  
 إليها عن ذكرها كوصفه الريح مثلاً ، خذ قول أحدهم :

وريح تفضل الروح عن مستقره وتستلب الركبان فوق الركائب  
 فلو أنها ريح الفرزدق لم يكن لها ترة من جذبها بالعصائب  
 وهل وصف البحرى الذئب إلا فكرة الفرزدق تحولت إليه فصاغها فى  
 قلبه ؟ وكذلك قل فى الشريف الرضى ؛ على أن الشعراء الذين قلدوا الفرزدق  
 قلائل جداً ، وليس وجود هذه الأفكار والصور عند من تقدمه أو من تأخر عنه  
 دليلاً على سرقها . كلا بل هى أفكار شائعة نسجها كثير من الشعراء كل على  
 منواله فاختلفت الصيغة وبقيت الفكرة واحدة ، وهذا ما يؤيد رأينا السابق فى  
 الفرزدق بأنه كان يستلهم شعره من المحيط ولا يحلق . إلا أن له أبياتاً مشهورة  
 سميت المقلدات منها :

وكنا إذا الجبار صعر خده      ضربناه حتى تستقيم الأخادع  
 أخذه بشار فقال :

إذا الملك الجبار صعر خده      مشينا إليه بالسيوف نعاتبه  
 وقوله :

والشيب ينهض فى الشباب كأنه      ليل يصيح بجانبه نهار  
 ونقل هذا المعنى عنه كثير من الشعراء .

## ٤ - جرير والفرزدق

لم تشتهر في تاريخ الآداب حرب كلامية كحرب جرير والفرزدق . بل لا نعلم لها مثيلاً في آداب الأمم الأخرى ، فقد بقى الشاعران يتهاجيان ويتشامان أربعين عاماً لم يخجل أحدهما الآخر ، والناس من حولهما فريقان يتعصب كل فريق لصاحبه ويدافع عنه ويضع الجوائز لمن يرفع صاحبه ويسب شاعر الفريق الآخر . وبلغ من شهرة هذه الحرب أن كانت حديث المجتمعات دائماً يهتم الناس بها ويثيرون بحفاها ويختصمون من أجلها ، ولم يكونوا يكتفون بالواقع كما وقع بل كانوا يضيفون إليه ما يصوره لهم الخيال ويزينونه بقصص ربما ليس لها أصل . وبين هذين الفريقين حزب متوسط يعتقد أن شيطان الشعارين واحد وأن لكل منهما امتيازاً خاصاً ؛ فهما معاً كفرسى رهان يجريان في قتران واحد ولا يتسابقان :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلوا الكلام ومرة لجرير (١)

وكانا إذا التقيا في مجلس تغطرس الفرزدق وافتخر بأبائه وغمز من جرير فلا يجيبه أكثر الأحيان . قيل : لقي الفرزدق جريراً محرماً فقال : أفسدت على ابن المراغة حجة . ثم جاءه مستقبلاً فجمزه بمشقة كان معه وقال له :

إنك لاق بالمشاعر من منى فخاراً فخبيرني بما أنت فاخر ؟ !

فقال جرير : لبيك اللهم لبيك . ولم يجبه .

وقدم الفرزدق الشام مرة وجرير فيها . فقال له جرير : ما ظننت أنك تقدم ببلاداً أنا فيه .

فقال الفرزدق إنى طالما خالفت رأى العجزة .

وحاول سليمان بن عبد الملك مرة أن يصلح بينهما فقال لجرير : مالك

والفرزدق ؟ !

فقال جرير : إنه يظلمنى .

(١) قاله مروان بن أبي حفصة . وفي رواية أخرى : ذهب الفرزدق بالهجاء وإنما . . .

فقال الفرزدق : رأيت آبائي يظلمون آباءه فسرت فيه بسيرتهم .

قال سليمان : إنكما لا تصطلحان أبداً !!

ومع أن الفرزدق كان يسهه أفظع سب ويشتمه ويسميه كلباً وخنزيراً ودنبراً  
ووضيعاً وابن المراغة (١) . . . إلخ ، كان جرير لا يتداني إلى هذه المنزلة ، بل  
كان يصيبه بعروبه ويعده هجيناً ، فيثور عليه الفرزدق ويسبه ويفتخر عليه  
بعائلته وأبيه . ولما كان الشاعران كلاهما من تميم فقد كان الفرزدق يجمع كل  
المحاسن في بني مجاشع ودارم وأهله الأذنين . ويسوق كل المساوئ والأيام السود  
إلى كليب قبيل جرير ثم يمدح بني تغلب لأن الأخطل منهم وهو الشاعر الذي  
أعانه على جرير . ولا يخرج جريراً من عائلته إلا ليصيبه بعرضه ويعيده إليها بعد  
أن يصدها في أخلاقها وعرضها ونسائها :

وما يغدو عزيز بنى كليب ليطلب حاجة إلا بجار

\* \* \*

وإنك إذ تسعى لتدرك دارماً لأنت المعنى يا جرير المكلف

\* \* \*

وأولئك آبائي فجنني بمثلهم إذا جمعنا يا جرير الجامع

\* \* \*

فإنك كلب من كليب لكلبة غدتك كليب في خبيث المطاعم

\* \* \*

لولا فوارس تغلب ابنة وائل نزل العدو عليك كل مكان

إن الأراقم لن ينال قديمها كلب عوى متهم الأسنان

\* \* \*

أما جرير فلم يكن ينزل إلى هذه الدركة ، ولكنه كان ينتقم منه أحياناً بالعفو  
عنه . حبسه خالد القسري مرة وهو عامل العراق فشفع فيه جرير وأخرجه من

السجن . ولما سئل جرير كيف يشفع له وهو عدوه . قال : إنه أذل له . ولما مات رثاه فقال :

فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ولا ذات بعل من نفاس تعلت  
هو الواقد الميمون والراتق الشأى إذا النعل يوماً بالعشيرة زلت (١)  
وليس معنى هذا الرثاء إقراراً له بالفضل عليه أو بتقدمه وتفوقه . ولكن عظمة  
الموت وسكونه أخرس لسانه وترك فراغاً كبيراً فخلأ الجو من المنافسة وماتت  
الأحقاد . وكان سبب التهاجي بين الشاعرين أن جريراً هجا غسان السليطي  
الشاعر فأخذه ، فاستعان عليه بالبيعت المجاشعي ، فعرض بجرير ، فهجاه جرير ،  
فخاف والتجأ إلى قوم جرير وقال : يا قوم عجلتم علي .

فقالوا : بلغنا عنك أمرٌ ، فإن شئت قلت كما قلنا وإن شئت صفحت .

قال بل أصفح . ثم جاورهم ثلاث سنين وارتحل عنهم راضياً ، وقدم على  
مجاهع قوم الفرزدق وسئل عن بني الخطي قوم جرير فأثنى عليهم . ولكن النساء  
قبحن رأيه وسفهنه وأنشدنه قول جرير السابق فيه ، فأخذته الحمية وهجا بني  
كليب ، فقالت بنو كليب لعطاء بن الخطي : اركب إلى مجاشع واستنهم عن  
أنفسهم فقد قالوا كما قيل لهم . ولكن البيعت — وقد أخذته العزة الجاهلية والحمية  
البلدوية — أبنى إلا هجاءهم فالتحم وجريراً بهجاء ألمه فيه جرير فالتجأ البيعت إلى  
الفرزدق ، واستعان عليه بنساء مجاشع يثرنه ، فذهبن إليه وقد قيّد نفسه بقيد  
ليمتنع من الخروج حتى يحفظ القرآن تنفيذاً لوصية عليّ التي سمعها منه وهو طفل  
بعد موقعة الجمل ، ذهبن إليه وقلن له : قبحت من شاعر قوم ، هتك جرير  
عورات نسائك وأنت ساكت ؟ فهاج الفرزدق وحميت فيه العصبية فهجا البيعت  
لتقصيره في هجاء جرير فسقط البيعت نهائياً ثم قال :

ألا استهزأت مني هنيئة أن رأيت أسيراً يداني خطوه حلق الحجل  
أتنى أحاديث البيعت ودونسه زرودٌ فشامات الشقيق من الرمل  
أنا الضامن الراعي عليهم وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

(١) الثأى : آثار الجرح والفتق . يقال فلان يرأب الثأى أى يصلح الفساد .

ولجّ الهجاء بين الشاعرين أربعين عاماً لم يحمده إلا الموت ، فكان أحدهم ينشئ القصيدة فينقضها الآخر فيجيبه الأول وهكذا . . . وقد جمعت نقائضهما وطبعت في ليدن فجاءت بجزءين ضخمين فيهما كثير من أخبار الشاعرين ومن كانت له علاقة بهما . ويجب ألا نمر بهذه القصة عرضاً ، بل ينبغي أن ننظر فيها بإمعان لأنها تعطينا صورة صحيحة عن العصبية القبلية والتكتل الحزبي زمن بني أمية ، لأن الشاعر لم يكن يمثل نفسه فيها فقط ، بل إن القبيلة كلها كانت تشترك معه في هجائه أو مدحه ويركب بعض زعمائهم إلى بعض ليتهادون بعد التهاجي . . .

### ٥ - الفرزدق ينحت من صخر

قال مالك بن الأخطل ، وقد أرسله أبوه يسمع شعر جرير والفرزدق ، وسأله عنهما فقال : « جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر » . والفرزدق نفسه يقول : « أنا عند الناس أشعر العرب ، ولربما كان نزع ضرس أيسر على من أن أقول بيت شعر » . وراجت هذه الفكرة في كتب الأدب وشاعت ولم يحاول أحد شرحها أو نقدها أو بيان نوع هذا الصخر الذي ينحت منه الفرزدق شعره ، وما مدى قسوته أو صلابته أو لينه . فلنحاول فتح هذا الباب فيما يلي :

ونزعم أن الفرزدق لم يكن شاعراً ملهماً يعتصر الفكرة من نفسه ويستصفها من قلبه ويختلسها من هواجسه ، بل كان صدى للمحيط يتناول الفكرة منه فجأة فيخمرها ثم ينحت منها تمثالاً يقدمه للناس صورة عما رأوا وعما سمعوا . فهو كخزان الماء العالى تتجمع فيه مياه الينبوع رويداً رويداً ، ومتى امتلأ أفرغ ما فيه من الماء بعد ترويقه وركود ما فيه من حثالة وتراب . بل هو كصحف هذا الزمان فيها المقالات السياسية التوجيهية وفيها الأخبار العامة والحوادث المحلية وكلها منتزعة من المحيط . وللفرزدق كثير من الشعر الذي بصرح أن نطلق عليه اسم « أخبار محلية » لست أدري أتصح لى هذه التسمية وأنا أتحدث عن شعر ملأ العصر

الإسلامى الأول كله ومشى صيته مع العصور حتى وصل إلينا وعليه طابع قديم موسوم بجملة تجعله فوق مجال التشكك والنقد: « لولا الفرزدق لضاع ثلث اللغة » خذ القطعة التالية قالها فى عبد الرحمن بن الأشعث الناثر العراقى الكبير ومهدد ملك بنى أمية الضخم بعد إحدى المواقع بينه وبين الحجاج .

وهم مثلنا ألف ولا عقل فيهم  
رأى طبقاً لا ينقضون عهدهم  
وهيمان لو لم يقطع البحر هارباً  
وزهران أتى فى دجيل بنفسه  
وما تركت رأساً لبكر بن وائل  
وأقلت حوآك اليمانيين بعد ما  
رأيت ابن أيوب قد استرعت به

ولا رأى من ذى حيلة لو تفكرا  
لهم قائد قدامهم غير أعورا  
أثارت عجاجاً حوله الخيل عثرا  
منافقها إذ لم يجد متعبرا  
ولا للكيزيتهين إلا مكورا  
رأى الخيل تردى من كبيت وأشقرا  
لك الخيل من خمسين ألف وأكثرأ

فهذه القطعة ألا نستطيع أن نضع لها عنواناً ضخماً فى جريدة سيارة وفى صدر الأخبار المحلية هكذا: « أخبار ابن الأشعث ». أو « معركة بين الثائرين والحكومة » ؟ ؛ انظر إلى البين الأول والأخير وأمعن الفكر فى عدد الثائرين وأسماء قوادهم وعدد جيش الحكومة . . ثم انظر فيما بين هذا وذاك صورة هربهم ووقوعهم فى البحر طلباً للنجاة وعبورهم النهر سباحة حين لم يجدوا معبراً ينجيهم . . ألا يصح أن نسمى هذا النوع من الشعر أخباراً محلية ؟ ! ألا ترى أن هذا النظم منتزع من قلب البيئة مستلهم من نفس المحيط ؟ ! وأن ليس للشاعر النظام فيه إلا فضل سلوكه الخبر نظاماً فى وزن وقافية بدلا من أن يرسله إرسالاً كثر عادى !! ولم يكن لديه خيال بارع ولا تصاوير نادرة تتحرك فيها الحياة وتنبض . وقليلاً ما تقع فى ديوانه على مثل قوله :

أما العدو فإنا لا نلين لهم  
حتى يلين لضرس الماضغ الحجر  
أو قوله :

تنقى يداها الحصى عن كل هاجرة  
نقى الدراهم تنقاد الصياريف  
وهو مع جماله التصويرى ؛ تشبيه مادی ليس فيه خيال عميق . وفى شعره

كثير من الحوادث والقصص والأخبار المحلية وأسماء الأشخاص . . . يحاول أن ينحت منها شعره نحاً . وانظر إلى القطعة التالية ، ألا ترى أنا نستطيع بأن نعدّها قائمة أسماء فقط ! ؟

دعمن بحاجب وابني عقال وبالقعقاع تيار الفرات  
 وصعصعة الحجير على المنايا بدمته وفكّاك العناية  
 وصاحب صوّر وأبي شريح وسلمى من دعائم ثابتات  
 بناها الأقرع الباني المعالي وهودة في شوامخ باذخات  
 لقيط من دعائمها ومنهم زرارة والندى والمكرومات  
 وبالمعمرين والضمرين نبني دعائم مجدهن مشيدات  
 ففي ستة أبيات فقط ، حشا ثلاثة عشر اسماً حشواً زجها في النظم زجاً ودفعها  
 دفعا فجاءت صلبة قاسية لا تشعر معها بروح شاعرية مطلقاً .

هذان نوعان من صنّور الفرزدق التي ينحت منها شعره ، على أن هناك أنواعاً أخرى أشد وأصلب تجعل شعره من النوع الصوّاني (granite) لا من النوع الطرى (calcaire) ، ذلك أنه يستعمل التراكيب المرصوفة والألفاظ الصلبة أو الغريبة أو عسرة الفهم أو التي لها معنيان يترك القريب ويقصد البعيد ، وقد يتناول على النحو أو الصرف ولا يبالي مشقة النحاة وعذابهم في تعليل ما يقول . ولنعرض بعض أقوال ففيها مقنع ودليل :

قال في الحجاج :

هو الشهاب الذي يرمى العدو به والمشرقي الذي تعصى به مضرُ  
 قصد بكلمة « تعصى » أي تستعمل السيف عصاً لا أنها فعل مضارع من العصيان .

وقال في بني مروان :

فأصبحوا قد أعاد الله نعمته إذ هم قريش وإذ ما مثلهم بشر  
 قصد بذلك إلى معنى بعيد يطول شرحه ومداه . يريد أن ملك العرب كان في الجاهلية لغير قريش وسائر مضر مع أنهم أحق به لفضلهم على جميع البشر .  
 الفرزدق

فلما جاء الإسلام أضحى الملك والإسلام فيهم فعاد إليهم ما كان قد خرج من أيديهم !!

وقال :

إذن لتغالت بالفلاة ركابنا إليك بنا يخذين مشياً عشترا  
فما هو العشتر؟ وقوله :

تبكى البغايا ورجلا كل فاجرة والزنكلنك على قبر ابن رواد  
فما هو الزنكلنك؟ وقوله :

حرب ومروان جذاك اللذا لهما من الروابي عظيمات الجماهير  
يقصد بالجماهير : الروابي الرملية الضخمة . وفي استعماله اللذا تكلف آخر  
وقوله :

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبو أمه حتى أبوه يقاربه  
وقوله :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجرف  
ويكثر من استعمال الكلم الغريب مثل : حراجيج . دهمج ، ع الماء  
« بدلا من على الماء » محدرجة ، قراسيات ، معلهج ، عوهج ، مطرخم . نبي  
« يقصد بها المكان المرتفع » جرنبذة . دلنظي . . . إلخ .

بل ما لنا نذهب بعيداً وأسماء أولاده مثال حتى لذوقه البلوى القاسى في  
الاختيار : حبطة ، لبطة ، سبطه ، ركضة ، زعمة ، كلطة ، جلطة ، ... إلخ .

وقد يشير أحياناً إلى حوادث ووقائع لا يمكن تفسير البيت بدون معرفتها .  
ولذلك يعسر كثيراً فهم مراده الحقيقي مما يقصد . لأن كثيراً من الحوادث مجهولة  
لا نعرف عنها شيئاً ، وهو يشير إليها إشارة عابرة كأنها مشهورة جداً ، وقد يعود  
الذنب في ذلك على التاريخ لا عليه ، ولكن ما حيلة التاريخ نفسه في حوادث  
تافهة بين قبيلتين أو فرعين منها لا قيمة لهما ؟ !

ويظهر أن داء الغرابة والتعمر كان فاشياً في أدباء ذلك الزمان فشواً هائلاً  
فترعه الفرزدق وهمل علمه بما ركب فيه من طبع بدوى جاف ، يؤيد ذلك

ما روى عن السيد الحميرى - وكان شاعراً علوياً رقيقاً ولكن ضاع أكثر شعره لإفحاشه في بعض الصحابة وأزواج النبي - سئل هذا الشاعر مرة عن هذه الرقة في شعره وقيل له : مالك لا تستعمل من الغريب في شعرك ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء ؟ !

فقال : لأن أقول شعراً قريباً من القلوب بلذّه من سمعه خير من أن أقول شيئاً معقداً تفضل فيه الأفهام .

والذى نعتقده أن احتياج الفرزدق للفخر الدائم في كل قصيدة جعله يتخير من الألفاظ أصلها ومن التراكيب الصخرية أفساها لتساوق وجعجة الفخر لأنها تملأ الماضغين وتدرّب في الأذنين كالطبل . انظر إلى قوله :

حراجيح بين العوهجى وداعر تجر حوافيها السريح المقدّدا

ألا تحتاج في تفسيره إلى نصف ساعة تضع بين قواميس اللغة وكتبتها ؟ ! ثم لا تخرج من هذا النصب المضنى والسياحة الطويلة في معاجم اللغة على معنى كبير ولا صورة ذات قيمة . أليس هذا ما جعل القدامى يقولون : « لولا الفرزدق لضاع ثلث اللغة » ؟ ! !

## ٦ - ماأخذ على الفرزدق

أخذ القدماء على الفرزدق بعض هنات أخلاقية كجبنه وتجبره وإغراقه في الفسوق حتى في مدينة الرسول . وبعض هنات لغوية وأدبية كتناوله على النحو والصرف وبعض الإيطاء والتضمين والمبالغات وإغارته على الشعراء وسرقة أبياتهم علناً ورسماً . يسمع البيت الجيد فيقول لصاحبه : « أتتركه لى أم تترك عرضك » . فيضطر المسكين إلى تركه خوفاً من لسانه ، فيدسه الفرزدق في قصيدة من قصائده وينسب بعد ذلك إليه ؛ من ذلك أخذه من الشمردل قوله :

وما بين من لم يعط سمعاً وطاعة وبين تميم غير حزّ الغلام  
ومن ابن ميادة قوله :

لو ان جميع الناس كانوا برية وحث بجدى ظالم وابن ظالم  
 لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجماعم  
 وأبدل دارماً بظالم فصار البيت : « وحث بجدى دارم وابن دارم » وهو  
 من أسير أبيات الفرزدق .

ومن جميل بشيئة قوله :

ترى الناس ما سرنا يسرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا  
 ومثل هذا كثير . ومن مبالغاته قوله :

ولو أن عصفوراً يمد جناحه على طي في دارها لاستظلت  
 وقوله :

أبوك الذى تستهزم الخليل باسمه وإن كان منها سير شهر مطرد  
 ومن إقوائه :

لو أن أشيم لم يسبق أستنا وأخطأ الباب إذ نبراتنا تُقد  
 إذاً لوافق مسعوداً وصاحبه كلاهما خارج الأعفاج والكبد  
 ومن تضمينه قوله :

يجود وإن لم ترتحل يابن غالب إليه ، وإن لاقيته فهو أجود  
 من النيل إذ عم المنار غثاؤه ومن يآته من راغب فهو أسعد  
 وقوله :

إلى أسد سارت برحلى وخاطرت عوادى من غلب يكاد زثيرها  
 تصدع منه الأرض وهى صحيحة إذا سمعته أو تقالع قورها  
 وبعد ؛ فإذا كانت هذه كل هنات الفرزدق وما يعد عليه من معايب ؛ فما  
 أحرانا أن نعلق عليها بقول المتنبي : « كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه » .